الإرهاب العظيم

(القسم الثالث)

تقع حلبجة على مسافة مئتي ميل من الحدود السورية، وقد أمضيت أسبوعاً في شمالي العراق، متوقفاً في طريقي، بمدند هوك واربيل. وقد سلمت إلى ممثلي الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يسيطر على حلبجة، في منطقة منزوعة السلاح إلى الغرب من مدينة كويسنجق. من هناك، كانت لنا رحلة بالسيارة دامت ساعتين عبر جبال شاهقة إلى السليمانية، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ستمئة وخمسين ألف نسمة والعاصمة الثقافية لكردستان العراق. في السليمانية قابلت فؤاد بابان، أحد ابرز الأطباء الأكراد الذي وعدني بمرافقتي لزيارة أجمة حلبجة العلمية والسياسية.

أطباء حلبجة

جيفري غولدبيرغ

لقد ظل بابان الذي يبلغ الستين من عمره، والاختصاصي في أمراض الرئة والقلب، على قيد الحياة برغم ثلاثة فترات قضاها في السجون العراقية، وهو رجل شيطاني ظريف. انه منسق معهد حلبجة الطبي الذي أسسته غوسدن، ومايكل أمبياتي، المدير التنفيذي للمعهد الكردي في واشنطن، وتحالف الأطباء الأكراد. كان هذا بالنسبة للأطباء، عملاً شجاعاً يجب ضمه إلى مشروع يمكن أن تستخدم اكتشافاته العلمية كأدلة إذا ما حوكم صدام حسين أمام محكمة جرائم حرب دولية. إن عملاء صدام متواجدون في كل مكان في المنطقة الكردية كما ان دباباته تقف على بعد أربعين ميلاً من مكتب بابان.

بعد وصولي مباشرة إلى السليمانية، ركبنا، بابان وأنا، سيارته التويوتا كامري وتوجهنا إلى حلبجة. اجتزنا عبر طريق وعرة، سهول شرزور، وهي منطقة أرضها سوداء وقممها عسلية اللون تحيط بها جبال تعلوها الثلوج. لكننا لم نكن مسافرين بمفردنا. فمن المعروف على نطاق واسع إن المخابرات العراقية قد عرضت مكافآت سخية مقابل رؤوس الصحفيين الغربيين الذين يتم الإبلاغ عن وجودهم في كردستان (بين عشرة آلاف دولار أو عشرين ألف دولار، حسب مصدر المعلومات). وتمتلئ المناطق المحيطة بالحدود مع إيران بجواسيس طهران، وقيل إن أعضاء في أنصار الإسلام، وهي منظمة إرهابية إسلامية، كانوا يقطعون رؤوس الناس في منطقة حلبجة. لذا رتب لنا الأكراد مرافقة أمنية. كانت سيارة لاند كروزر تحمل مقاتلي البيشمركا لفتح الطريق أمامنا كما تتبعنا سيارة لاند كروزر أخرى نصب عليها موقع مضاد للطائرات يشغله ستة عناصر من البيشمركا، يعتمر بعضهم خوذاً سوداً. لقد كنا على مسافة قريبة جداً إلى الجنوب من خط حظر الطيران الذي فرضه الأمريكيون والبريطانيون. وقد قيل لي، انه خلال الفترة التجريبية للمنطقة الآمنة، أنذر الأمريكيون قوات صدام حسين أن تبقى بعيدة عن هذا الخط. وبدا لي أنه مهما كان التهديد من الجو ليس مستبعداً، إلا أنه لم يكن مستحيلاً.

قال بابان في بداية درسه لي: "يبدو أنه من المهم جداً أن يعرف المرء المفعول المباشر والطويل الأمد للأسلحة الكيماوية والبيولوجية". فنحن هنا أمام شعب مدني تعرض لأسلحة كيماوية وبيولوجية، وهم يصابون بعدة أنواع من السرطان والتشوهات غير الطبيعية عند الولادة. والأمريكيون معرضون لخطر هذه الأسلحة. إنها رخيصة الثمن والإرهابيون يمتلكونها. وبعد حدوث الهجمات بمادة الأنثراكس في الولايات المتحدة، أعتقد أنه من الملح جداً أن يتم إجراء أبحاث علمية هنا".

يعتقد الخبراء أن حلبجة والمناطق الكردية الأخرى قد ضربت بخليط من غاز الخردل وغاز الأعصاب، بما في ذلك السارين (العنصر الذي استخدم في الهجوم الذي حصل في قطار الأنفاق في طوكيو) وغاز (في أكس) وهو عنصر فاعل مضاد للأعصاب. أدهشني قول بابان إن الأسلحة البيولوجية قد تكون استخدمت أيضاً. وقد ذكر بابان بين هذه الأسلحة البيولوجية الممكنة مادة الأفلاتوكسين التي تسبب أضراراً على المدى الطويل.

قال لي زميل لبابان، وهو طبيب جراح يعمل في دهوك في شمال غرب كردستان، والعضو في فريق معهد حلبجة الطبي، المزيد عن المسح الذي أجراه المعهد في منطقة دهوك عام 1999. قال إن القائمين بالمسح بدأوا بطرح أسئلة بدائية، وبعد مرور أحد عشر عاماً على الهجمات، لا يعلمون حتى أي القرى تعرضت للهجوم.

قال الطبيب، "لقد ذهب الفريق إلى كل القرى تقريباً. وفي البداية، ظننا أن دهوك كانت أقل من تأثر. وكان في علمنا أن هناك قريتين فقط تعرضتا للهجمات. لكننا توصلنا إلى ما مجموعه تسع وعشرين قرية. هذا بعد مرور إحدى عشر عاماً على الحدث".

الطبيب الجراح إنسان محترف ظاهرياً، لكنه شديد الغضب. وهو يعمل أيضاً كطبيب جراح للأطفال لان لا وجود لأطباء جراحة أطفال في كردستان. لقد أجرى أكثر من مئة عملية للشق الحلقي على أطفال ولدوا بعد عام 1988، ويعتقد أن معظم العناصر الكيميائية التي ألقيت على حلبجة لم تعش إلا نصف مدتها، لكن، كما قال لي بابان، "الأطباء غير متأكدين إلى متى سيدوم مفعول هذه التوكسينات على السكان. كيف يمكن أن نعرف نصف - عمر عنصر كيمائي إذا كنا لا نعرف هذا العنصر؟" وأضاف، "لو كنا نعرف التوكسينات التي استخدمت لأمكننا متابعتها ورؤية أثرها على تكون السائل المنوي لدى الرجال والبويضات لدى النساء".

وقال إن ازدياد نسبة العقم له تأثير عميق على المجتمع الكردي الذي يعلق أهمية كبرى على العائلات الكبيرة العدد. وقال، "فهناك من يطلقون زوجاتهم لأنها غير قادرة على الإنجاب، ثم يتزوجون من جديد، وبعدها لا تستطيع الزوجة الثانية الإنجاب كذلك". لكنهم إلى الآن لا يلقون اللوم على تكون السائل المنوي لديهم.

قال لي بابان إن النتائج الأولية للمسح الذي يرعاه معهد حلبجة الطبي يظهر معدلات مرتفعة وغير طبيعية للعديد من الأمراض. يقول انه قارن بين معدلات مرض سرطان الكولون في حلبجة مع المعدلات في مدينة جمجمال التي لم تتعرض لهجوم بالأسلحة الكيماوية، "وقد وجدنا معدلات تزيد خمسة أضعاف في حلبجة عما هي الحال في جمجمال".

قال بابان، وهناك أشياء شاذة أخرى. فمعدل الإجهاض في حلبجة، حسب النتائج الأولية للمسح، يزيد بنسبة أربع عشرة مرة عما هو في جمجمال، ان معدل العقم بين الرجال والنساء عند السكان الذين تعرضوا للهجوم هو أعلى عدة مرات من المعدل الطبيعي. وأضاف، "إننا نجد معدلات عقم بمستوى هيروشيما".

وهناك أيضاً ارتياب بالنسبة للأفاعي. سألني ونحن في السيارة "هل سمعتم شيئاً عن الأفاعي؟" قلت له إني سمعت شيئاً. ثم أستطرد بابان قائلاً، "لا ندري إذا كان قد جرى تحول في الجينات لدى الأفاعي مما جعلها أكثر سمومية، أو إذا كانت الطيور التي تأكل الأفاعي قد قتلت خلال الهجمات، لكن يبدو أن هناك ازديادا في لدغات الأفاعي، ودرجة سم أكبر أكثر من قبل في حلبجة." (سألت ريتشارد سبرتزل، وهو عالم وعضو سابق في فريق لجنة التفتيش الخاصة التابعة للأمم المتحدة إذا كان ذلك ممكناً. أجاب، نعم لكن مثل هذا الازدياد في لدغات الأفاعي يعود على الأرجح إلى "فقدان التوازن البيئي" بدلا من أي تحول ما).

توقف حديثي مع بابان فجأة على يد مرافقينا الذين أوقفوا السيارة وطلبوا مني أن أنضم إليهم في إحدى سيارات اللاند كروزر، حولنا سيرنا عبر حقل مزروع بالقمح، بدون أي تفسير. وقيل لي في ما بعد أننا كنا نعبر منطقة جبلية جرت فيها مشاكل مع إرهابيين إسلاميين.

وصلنا إلى حلبجة بعد نصف ساعة. وعند الدخول إلى المدينة، ترى تمثالاً صغيراً اصنع على شكل إحدى أشهر الصور الفوتوغرافية لمذبحة حلبجة، رجل مسن، ممدد وبلا حياة، يحمي حفيده الميت بجسمه. يبدو كان سبتاً قد أصاب حلبجة، حتى البازار كسول وفارغ بعض الشيء في تناقض ظاهر مع الوضع في المدن الكردية الأخرى المزودة بكثرة بالسلع المستوردة (لقد جعل التاريخ والظروف من الأكراد مهربين نشطين) والتي تزخر بالضجيج والحركة. قال لي طبيب في حلبجة" إن كل إنسان هنا مريض والذين ليسوا مرضى مصابون بالكآبة". يمارس الطبيب عمله في مستشفى الشهداء خارج المدينة. والمستشفى غير مجهز بالتدفئة، ولا بالمعدات المتقدمة، فهو كالمدينة ذاتها، في وضع متردد.

الطبيب رجل نحيل، وشاب يرتدي سترة من الجوخ ويدخن بلا توقف. أخذني هو وبابان في زيارة للمستشفى. بعدها، جلسنا في مكتب فارغ أدخلت إليه امرأة على كرسي نقال. كانت تبدو في السبعين من العمر لكنها قالت إنها في الخمسين. قال لي الأطباء إنها تشكو من ندوب في الرئة خطرة لدرجة أن لا شيء يمكن من إنقاذها سوى عملية زرع رئة. لكن ليس في كردستان مراكز لزرع الأعضاء. المرأة التي اسمها جيران محمد، فقدت ثمانية نسباء لها خلال الهجوم. كان صوتها غير مسموع تقريباً. قالت لي بينما كان بابان يترجم، "لقد أصبت باضطراب نفسي لمدة طويلة. ظننت أن أولادي أحياء". وقال لي بابان إن رئتيها سوف تنهار ان قريباً. وأنها بالكاد تستطيع التنفس. أضاف، "إنها تنتظر الموت". قابلت امرأة أخرى، تدعى شيّا حملسات، كانت في الثامنة يوم الهجمات وأصبحت ضريرة منذ ذلك الحين. قالت إن والدتها ماتت بسبب سرطان الكولون قبل بضع سنوات وإن أخاها يشكو من ضعف مزمن في التنفس. سألت بصوت خافت، "أليس هناك من أمل في شفاء نظري. لقد تزوجت لكني لا أستطيع القيام بواجبات الزوجة لأني ضريرة. لقد تركني زوجي".

وقال بابان ان "عدد الولادات غير الطبيعية في حلبجة يفوق عدد الولادات الطبيعية". وقال لي أطباء أكراد آخرون انهم يرون بصورة منتظمة أطفالاً يولدون بعيوب في الأنبوب العصبي، أو خصيتين غير مكتملتين، أو دون مخرج في الشرج. ويجد الأطباء أطفالاً ولدوا مع ستة أو سبعة أصابع في كل قدم - كما أروني - وأطفالاً كانت أصابع أيديهم وأصابع أقدامهم ملتصقة بعضها ببعض، وأطفالاً يشكون من أمراض اللوكيميا وسرطان الكبد.

وقابلت سركار، وهو فتى خجول وذكي ذو شفة شرماء (متدلية) وشق حلقي، وتورم في العمود الفقري. قال لي الأطباء إن لسركار شقيق ولد مع نفس المجموعة من التشوهات لكن الشقيق مات خنقاً وهو رضيع بسبب حبة أرز.

في هذه الأثناء، ازداد عدد الضحايا المجتمعين في الممرات، ليس لدى أهالي حلبجة الكثير من الفرص لسرد رواياتهم أمام الأجانب. كان بعضهم يريد معرفة ما إذا كنت طبيباً جاء ليصحح تشوهات أبنائهم، لكن أصابتهم الخيبة عندما علموا أني صحافي. بعد ذلك بقليل غادرنا الطبيب وأنا المستشفى للتجول في ضواحي حلبجة الشمالية التي كانت المنطقة الأكثر تضرراً من الهجوم. وقد سار خلفنا البيشمركا الذين يحملون أسلحة كلاشنيكوف أوتوماتيكية. كان الطبيب يدخن ونحن نسير ومازحته حول عادته هذه. قال دون مزاح، "للتدخين بعض المفعول الجيد على الرئتين. فخلال الهجمات كان مفعول الهجوم أقل على المدخنين، ربما لان رئاتهم كانت مجهزة بشكل أفضل ضد غاز الخردل".

مشينا في أزقة الحي اليهودي ومررنا أمام معبد سابق مات فيه تقريباً ثمانين من الحلبجيين خلال الهجوم. كانت هناك أبقار ضعيفة تتمشى في الأزقة. أراني الطبيب عدة أقبية ماتت فيها تجمعات من الناس. دققنا باب أحد المنازل ودعتنا إلى الدخول امرأة مسنة واسعة الابتسامة وقليلة الأسنان. وقد دعتنا فوراً، كما تقضي التقاليد الكردية، إلى تناول الغداء.

الخطر الحالي

تتمثل مفارقة الحياة في شمال العراق انه في حين يوجد هناك مئات وربما الآلاف من الأطفال يعانون من آثار الهجمات بالأسلحة الكيميائية فإن معدل وفيات الأطفال في المنطقة الكردية تحسنت خلال السنوات العشر الماضية. يعزو رئيس الوزراء صالح سبب هذا التحسن، من بين أمور أخرى، إلى العقوبات الاقتصادية التي فرضتها منظمة الأمم المتحدة على النظام العراقي بعد حرب الخليج بسبب رفض العراق تفكيك برنامجه لإنتاج أسلحة غير تقليدية. ويعزو سبب ذلك بشكل خاص إلى البرنامج الذي بوشر بتنفيذه عام 1997، المعروف باسم برنامج النفط مقابل الغذاء، الذي كان القصد منه تخفيف آثار العقوبات الاقتصادية على المدنيين من خلال السماح باستخدام الأرباح الناتجة عن مبيعات النفط العراقي لشراء الأغذية والأدوية. وصف صالح هذا البرنامج بأنه "مفهوم مدهش"، مضيفاً بأنه للمرة الأولى في تاريخنا تتأمن للمواطنين العراقيين، جميع المواطنين العراقيين، فائدة من جزء من ثروة البلاد النفطية. وشمالي العراق هو بمثابة شهادة على نجاح البرنامج. يباع النفط وتشترى الأغذية".

طلبت من صالح أن يرد على الانتقاد، المنتشر بصورة واسعة في الغرب، الذي يقول بأن العقوبات الاقتصادية أدت إلى وفاة الآلاف من الأطفال فأجاب "العقوبات الاقتصادية لا تقتل الأطفال العراقيين، بل أن النظام هو الذي يقتل الأطفال".

حيرني هذا الرد. فإذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا يظل ضحايا هجمات الغازات السامة يعانون من عدم توفر العناية الصحية لهم؟ في كافة مناطق كردستان وفي كل مستشفى قمت بزيارته كانت الشكاوى نفسها، عدم توفر أجهزة الفحص بالمسح المقطعي، وأجهزة الفحص بالرنين المغناطيسي، وأدوات جراحة الأطفال، ومعدات تشخيص متقدمة، ولا حتى قفازات جراحية. سألت صالح لماذا لا تستخدم الأموال التي خصصتها الأمم المتحدة للأكراد لشراء معدات طبية متقدمة؟ أجاب بأن هناك خللاً هائلاً في برنامج النفط مقابل الغذاء. فعند بدء تنفيذ البرنامج، وعد الأكراد بالحصول على نسبة 13 بالمئة من الواردات النفطية للبلاد، ولكن بنود الاتفاق الموقع بين بغداد والأمم المتحدة أدى إلى "الخلل". فالحكومة تسيطر على إيصال الأغذية والأدوية والمعدات الطبية إلى نفس الناس الذين قامت بذبحهم. ولكنه اعترف ان المواد الغذائية والأدوية الأساسية تصل فعلاً، ولكن وفق الوتيرة التي يريدها صدام.

تتوافق الأحزاب الكردية المتنافسة على مسألة عمل الأمم المتحدة ووكالاتها. قال نيرشيفان البرزاني، رئيس وزراء المنطقة التي يسيطر عليها الحزب الديموقراطي الكردستاني، والذي يقابله صالح رئيس وزراء المنطقة التي يسيطر عليها الحزب الوطني في كردستان، "استمرينا لمدة ثلاث سنوات نطالب بإنشاء مستشفى يتسع لأربعمائة سرير في مدينة السليمانية." تقع مدينة السليمانية في المنطقة التي يسيطر عليها صالح ولكن في هذه المسألة بالذات لم تكن هناك أهمية للجغرافيا. قال البرزاني، "انه مالنا ولكننا بحاجة إلى موافقة العراقيين فهم الذين يقررون. تتلقى منظمة الصحة العالمية أوامرها من العراقيين، انه جنون".

اتهم البرزاني وصالح منظمة الصحة العالمية، بشكل خاص، بمنح العقود المربحة فقط إلى الشركات التي يساندها صدام. قال صالح، "في كل مرة أتعامل فيها مع الأمم المتحدة اعتقد يا إلهي إن جيسي هيلمز على حق. إذا لم يكن بمقدور الأمم المتحدة أن تساعدنا نحن، هذه الأمة المسلمة الفقيرة المغلوبة على أمرها، إذاً لمن تعمل هذه المنظمة؟".

يعتقد كثيرون من الأكراد أن أصدقاء العراق في الأمم المتحدة، بالأخص دول المجموعة العربية، عملوا على إبقاء قضية الأكراد بعيدة عن النقاشات. يواجه الأكراد وضعاً مؤسساتياً غير مؤات في الأمم المتحدة، حيث أنهم، بعكس الفلسطينيين، لم يمنحوا وضع مراقب رسمي في الأمم المتحدة. ازدادت حدة كلام صالح إذ قال، "قارنونا بحركات التحرر الأخرى حول العالم. إننا ناضجون جداً، ولا نمارس الإرهاب. لا نتغاضى عن الأفكار القومية المتطرفة جداً التي لا يمكنها إلا إرهاق شعبنا بالأعباء. أرجو أن تقارن ما حققناه في منطقة السلطة الوطنية في كردستان مع السلطة الوطنية الفلسطينية التي يرأسها السيد عرفات. لقد أمضينا السنوات العشر الأخيرة في بناء مجتمع ديموقراطي علماني، مجتمع مدني، فماذا بنى هو؟".

قابلت في نيويورك الأسبوع الماضي بينون سيفان، مساعد الأمين العام للأمم المتحدة الذي يشرف على برنامج النفط مقابل الغذاء. جعلني أفهم بسرعة انه لا يتأثر بمطالب الأكراد. وقال سيفان، "لو كانت لديهم لحن أغنية وطنية لكانت، أعطني، أعطني، أعطني. ني أصبحت متخماً للغاية من شكاواهم. يمكنك ان تخبرهم ذلك" وقال انه بموجب برنامج النفط مقابل الغذاء تم تخصيص بلايين الدولارات على شكل سلع وخدمات إلى "المحافظات الشمالية الثلاث". فالمسؤولين في الأمم المتحدة يتجنبون قول كلمة "كردستان". وقال، "لا أدري إذا كانوا قد حصلوا في أي زمن على مثل هذه الحياة الجيدة".

ذكرت له شكوى الأكراد من أنهم حرموا من الحصول على معدات طبية متقدمة فقال، لا يمنعهم أي إنسان من طلب ذلك، يجب أن يسألوا منظمة الصحة العالمية التي ترسل تقاريرها المتعلقة بالعراق إلى سيفان. وعندما قلت له إن الأكراد طلبوا ذلك بصورة متكررة من منظمة الصحة العالمية، أجاب، "لن أدين منظمة الصحة العالمية". عند انتهاء المقابلة، سألت سيفان حول أخلاقية السماح للنظام العراقي بالسيطرة على وصول الغذاء والدواء إلى كردستان فأجاب، "لا أحد بريء. أرجو أن لا تبحث مسألة الأخلاقيات معي".

عندما ذهبت إلى كردستان في شهر كانون الثاني لكتابة تقرير حول الإبادة الجماعية ضد الأكراد التي نفذت عام 1988، لم أتوقع بأن أنحرف عن غايتي بسبب نقاش حول العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة. ولم أتوقع بالتأكيد أن أنحرف عن غايتي بسبب الجرائم التي يرتكبها صدام ضد الأكراد الآن وبالأخص مسألة "تصحيح الجنسية" وهو القانون الذي تستخدمه أجهزة الأمن التابعة لصدام لتطبيق حملة التطهير العرقي. لم تحصل عمليات واسعة النطاق ضد الأكراد في كركوك، وهي مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من أربيل، إلا على اهتمام محدود جداً من الصحافة الغربية وكذلك الأمر في مناطق أخرى من كردستان العراق الخاضعة لسيطرة صدام. تم نشر بعض التقارير الصحفية الوجيزة ولكن لم تجر في مجلس الأمن أي محاولة لتقديم مشروع قرار يندد بهذه الأعمال تعبيراً عن غضب محق.

طالبت دوائر الأمن التابعة لصدام من الأكراد "تصحيح جنسيتهم"، وذلك من خلال توقيع مستندات تشير إلى أن سجلات ولادتهم خاطئة وانهم بالفعل عرب. كان يتم الاستيلاء على أملاك الذين يرفضون توقيع هذه المستندات. وطرد العديدون، غالباً إلى مناطق خاضعة لحكم الأكراد، وذلك لإفساح المجال أمام سكن عائلات عربية مكانهم. استناداً إلى الحزب الديموقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني فان اكثر من مئة ألف كردي طردوا من منطقة كركوك خلال السنتين الماضيتين.

إن قانون "تصحيح الجنسية" يشكل إحدى الوسائل التي يستخدمها النظام في تنفيذ حملة "تعريب" شاملة تهدف إلى استبدال السكان في المدن الكردية، بالأخص في منطقة كركوك الغنية بالنفط، بعرب من وسط وجنوب العراق وحتى، استناداً إلى تقارير مستمرة، بفلسطينيين. يقول بيتر غالبريث، أستاذ في جامعة الدفاع الوطني والمستشار السابق لدى لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، ان عملية التعريب ليست جديدة. راقب غالبريث نشاطات صدام المناهضة للأكراد منذ ما قبل حرب الخليج. قال لي، "بدأت هذه العملية منذ أكثر من عشرين سنة. ربما تسارعت وتيرة تنفيذها ولكنها بالتأكيد ليست جديدة. أتذكر انها جزء من عملية أشمل، كان يجري تنفيذها لسنوات عديدة، تهدف إلى تقليص مساحة المنطقة التي يقطنها الأكراد كما إلى تدمير الحياة الريفية في كردستان".

قال لي سعدي برزنجي، عميد جامعة صلاح الدين في محافظة أربيل، وهو محام مدافع عن حقوق الإنسان والمستشار القانوني لمسعود البرزاني، "إنها ذروة الإبادة الثقافية". يعتقد بارزنجي وغيره من القادة الأكراد أن صدام يحاول إقامة منطقة عازلة بين العراق العربي وكردستان استباقاً لاحتمال حصول الأكراد على الاستقلال. وللمساعدة في تحقيق هذا الهدف، يحاول صدام إعادة كتابة تاريخ كركوك بحيث يعطيها ماضياً "عربياً"، كما قال لي بارزنجي الشهر الماضي. وقال لي بارزنجي أيضاً، "انه إذا لم يغير الأكراد أصلهم العرقي كانوا يحرمون من حصص الأغذية، ومن التوظيف في الدوائر الحكومية، ومن حق تسجيل أسماء أولادهم الجدد في دوائر النفوس. خلال الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الماضية صدرت الأوامر إلى المستشفيات كما إلى مستشفيات الولادة بعدم تسجيل أي اسم كردي لمولود جديد". ولذلك يضطر الأهل الآن "إلى اختيار اسم عربي". وزاد بارزنجي قائلاً إن حملة تصحيح الجنسية امتدت حتى إلى المتوفين. "لقد أمر صدام بإزالة شواهد القبور، ومحو الماضي، ووضع شواهد جديدة تحمل أسماء عربية. انه يريد أن يظهر أن كركوك كانت دائماً عربية".

قيل أن بعض الأكراد الذين يجتازون الخط الفاصل بين قوات صدام والمنطقة الكردية لا يطردون بل أنهم يهربون لأسباب اقتصادية. إلا أن هناك لاجئين في الخيمات الكردية عبر كردستان أخبروني قصص عن زيارات رجال الشرطة السرية لهم في منتصف الليالي.

يعيش الكثير من اللاجئين من كركوك في مخيمات بنيت على حقول رطبة وموحلة وقد قمت بزيارة أحد هذه الخيمات في بني سلاوة غير البعيدة عن أربيل حيث الطين كان سميكاً بدرجة انه نزع

الناس الموجودين في الخيم يرتدون خرقاً بالية ويعانون مختلف الأمراض. سمعت ان عددهم يبلغ عدة مئات حسب ما جاء في تقديرين مختلفين. أخبرني رجل يدعى هوار انه كان من المستحيل عليه تجنب العذاب حتى ولو كان قد وافق على تغيير هويته العرقية.

قال لي، "عندما توافق على تغيير جنسيتك، يكتب رجال الشرطة على وثيقة تعريف لهوية عربي من الدرجة الثانية، الذي يعني كردياً. وهكذا يعرفون دوماً بأنك كردي". (وفي مفارقة ملتوية يختص بها نظام صدام، أخبرني قادة أكراد بأنه يفرض على الأكراد الذي وافقوا على "تغيير" جنسيتهم غرامة مالية لادعائهم السابق الخاطئ بأنهم أكراد".

قالت لاجئة أخرى، تدعى شوكت حميد محمد، إن ابنها أدخل السجن لمدة شهرين لأنه كان يحمل صورة لمصطفى البارزاني. قالت إنها مع أفراد عائلتها بقوا في مخيم بني سلاوه لمدة شهرين: "جاء أفراد الشرطة وقرعوا على بابنا وأخبرونا بأن علينا مغادرة كركوك. استأجرنا شاحنة لنقل أمتعتنا. أعطينا فرصة يوم واحد للمغادرة. ليس لدينا أي فكرة حول من يقطن الآن في منزلنا". اقترب مني لاجئ آخر يدعى إبراهيم جميل ليستمع إلى الحديث، وقال، "العرب يسيطرون على مدينة كركوك. وقريباً سوف يكون سكان المدينة فقط من العرب والأكراد الذين يسمون أنفسهم عرباً، ويقولون إننا لابد وأن نكون عرباً، ولكننا أكراد. من الأسهل علي أن أموت أكثر من أن أكون عربياً. كيف لا يمكنني أن أكون كردياً؟".

أخبرني بيتر غالبريث في عام 1987 بأنه شاهد تدمير قرى ومقابر كردية، و"كل ما يرتبط بالهوية الكردية. كان ذلك أحد العوامل التي دفعتني إلى الاستنتاج بأنها سياسة إبادة جماعية، جريمة مقصودة، لتدمير مجموعة بكاملها أو جزء منها".

سباق التسلح العراقي

في سلسلة من الاجتماعات عقدت خلال صيف وخريف عام 1995، التقى شارلز دولفر، نائب الرئيس التنفيذي للجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة، أو أونسكوم، التي لم يعد لها وجود الآن، في بغداد مندوبين عن الحكومة العراقية. كان موضوع الاجتماعات دراسة وضع البرامج العراقية لإنتاج الأسلحة غير التقليدية وكان دولفر، الدبلوماسي الأمريكي الذي استعارت خدماته الأمم المتحدة، قد اقترب من تحقيق اختراق في هذا المجال.

في أوائل شهر آب، هرب حسين كامل، صهر صدام، إلى الأردن ومن هناك تكلم علناً حول قدرات العراق في إنتاج أسلحة بيولوجية، وكيميائية، ونووية. (عاد كامل إلى العراق بعد ذلك وقتل فوراً تقريباً تنفيذاً لأوامر حماه). تضررت مصداقية النظام كثيراً بفعل تصريحات كامل، وخلال هذه الاجتماعات قرر المندوب العراقي أن يقول لدولفر وفريقه أكثر مما كان قد كشف عنه في السابق. يتذكر دولفر قائلاً، "كانت تلك هي المرة الأولى التي وافق العراق فيها فعلاً على مناقشة الأصول الرئيسية لهذه البرامج". وكان من بين الاعترافات المذهلة التي أدلى بها العراقيون الإقرار بتسليحهم العنصر البيولوجي أفلاتوكسين.

والأفلاتوكسين، الذي ينتج من أنواع من الفطر تنمو في بذور عفنة، هو العامل البيولوجي الذي يرتاب الأطباء الأكراد بأنه مزج مع أسلحة كيميائية وألقي في كردستان. قالت لي كريستين غوسدن، الطبيبة البريطانية المتخصصة في علم الوراثة، "لا يوجد مطلقاً أي دليل يؤكد استعمال مادة الإفلاتوكسين في شمال العراق، ولكن قد يعود سبب ذلك الى عدم تنفيذ اختبارات نظامية في المنطقة، حسب معرفتي". أخبرني دولفر، "استمرينا في الضغط على العراقيين لمناقشة مسألة استعمال الأفلاتوكسين. علماً أن أصل برامج إنتاج الأسلحة البيولوجية يعود إلى دوائر الأمن وليس في المفهوم العسكري بأنه نتج عن برامج الاغتيالات. قال دويلفر إن العراقيين اقروا بشيء آخر، لقد شحنوا الإفلاتوكسين في رأسين حربيين لصاروخ سكود كما مزجوا الأفلاتوكسين بالغاز المسيل للدموع ولم يقولوا لماذا فعلوا ذلك.

في مقال كتبه دولفر ونشر في صحيفة لوس أنجلوس تايمز السنة الماضية حول البرامج العراقية لتطوير أسلحة الدمار الشامل، عرض هذه الفرضية، "إذا كان نظام حكم يرغب في إخفاء هجوم بالأسلحة البيولوجية ما هي الطريقة الأنسب للقيام بذلك؟ يعاني الضحايا من آثار قصيرة المدى نتيجة استنشاق الغاز المسيل للدموع ويعتقدون ان ذلك هو الهجوم بكامله. أما حالات الإصابة اللاحقة بالسرطان فلن تربط بالحدث السابق".

ذعر مفتشو الأمم المتحدة عندما علموا ببرنامج الإفلاتوكسين. صور ريتشارد سبرتزل، رئيس المفتشين عن الأسلحة البيولوجية لدى اونسكوم ذلك على هذا الشكل، "انه سلاح شيطاني". كان العراق يدرك تماماً النتائج السرطانية للافلاتوكسين على المدى الطويل. فالافلاتوكسين يؤدي إلى نتيجة وحيدة: تدمير أكباد الناس. واعتقد أن الأطفال معرضون أكثر لهذا التأثير. من وجهة نظر أخلاقية، يعتبر الافلاتوكسين أشد الأسلحة وحشية، فهو يعني مشاهدة الأطفال يموتون ببطء من جراء إصابتهم بسرطان الكبد".

يعتقد سبرتزل انه في حال تقرر استعمال الافلاتوكسين كسلاح فإنه لن ينتشر بواسطة صاروخ. قال، "الافلاتوكسين مادة مخادعة نوعا ما. لا أعرف ما إذا كانت جرعة واحدة منه في وقت ما سوف تؤدي إلى تأثيرات على المدى الطويل. فالتعرض المتواصل والمتكرر لهذه المادة - من خلال الأغذية - قد يكون له أثر أكبر". وعندما سألت سبرتزل ما إذا كانت دول أخرى قد صنعت الافلاتوكسين كسلاح أجاب "لا أعرف ان أي دول أخرى فعلت ذلك ولا أعرف أي دولة تود أن تفعل ذلك".

لا نعلم بالضبط أنواع الأسلحة البيولوجية والكيميائية التي يملكها صدام في الوقت الحاضر. عندما طرد صدام مفتشو الاونسكوم من العراق عام 1998 كانوا قد عثروا على جزء كبير من ترسانته، ولكنهم كانوا مغتاظين بسبب الأشياء التي لم يتمكنوا من إيجادها. لقد أنتج علماء صدام بالتأكيد وصنعوا مادة الانثراكس كما أنتجوا اسم البوتيولينوم الذي يسبب الشلل العضلي والموت. صنعوا جرثومة برفرينجنز كلوستريديوم، وهي تسبب الغنغرينا الغازية، أي الحالة التي يتعفن خلالها اللحم. كما صنعوا أيضاً مرض الحنطة وهو نوع من الفطريات يمكن استعماله لتسميم المحاصيل، وأنتجوا غاز الريسين الذي يسبب النزيف الرئوي عند استنشاقه ودخوله إلى الرئتين.

استناداً إلى غاري ميلهولين، مدير مشروع وسكونسن لمراقبة الأسلحة النووية، الذي يراقب مشروعه المسمى "مراقبة العراق" قدرات أسلحة صدام، لم يتمكن مفتشو اونسكوم من الكشف عن كميات كبيرة من الأسلحة التي يعتقد ان العراق يملكها بضمنها أربعة أطنان من غاز الأعصاب في اكس، وستمئة طن من المواد التي تدخل في تركيب غاز الأعصاب في أكس، إضافة إلى حوالي ثلاثة آلاف طن من عناصر تدخل في إنتاج غيرها من الغازات القاتلة، وما لا يقل عن خمسمئة وخمسين قذيفة مدفعية محشوة بغاز الخردل. كما لم يجد المفتشون أي مستودعات للافلاتوكسين.

إن دوافع صدام غير واضحة أيضاً. خلال معظم سنوات العقد المنصرم لم يسبب تطوير هذه الأسلحة شيئاً ما عدا المشاكل له، وتزداد عزلته الدولية ليس بفعل جرائمه السابقة بل بسبب رفضه السماح للمفتشين عن الأسلحة بتفكيك برامجه لإنتاج أسلحة غير تقليدية. عندما سألت المنشق العراقي كنعان مكية عن سبب تمسك صدام بهذه البرامج، قال، "اعتقد أن هذا النظام طور إيديولوجية محددة تماماً تترافق مع السلطة وكيفية توسيع هذه السلطة وتلعب هذه الأسلحة دوراً نفسياً وسياسياً مهماً جداً. ينظر إلى هذه الأسلحة على أنها ضرورية لأمن وامتداد عمر النظام".

في عام 1999 حاصرت القوات العراقية، التي ارتدى أفرادها ألبسة بيضاء واقية من الأخطار البيولوجية، بصورة فجائية مدينة كربلاء الواقعة في جنوب العراق. لم يفعل الرجال في البزات البيضاء شيئاً. وقفوا هناك فقط. قال بارام، "كانت الرسالة واضحة". ان ما فعلناه بالأكراد في حلبجة يمكننا أن نفعله بكم". إنه سلاح نفسي فعال للغاية وبالفعل، ركض الناس إلى منازلهم وأغلقوا نوافذهم. لقد عملت هذه الخطة بصورة جيدة للغاية".